وهـران من خلال كتب الجغرافيا والرحلات

د. الحمدي أحمد
قسم الحضارة الإسلامية
جامعة وهران.

تمهيد:

برع المسلمون في الجغرافيا، والرحلات، وأسهموا في هذا المجال إسهامات جليلة أشاد بها أعدائهم. فالرحلة تعمل على ملامسة الواقع عن طريق الحركة والتنقل، وصاحبها بذلك يتأثر خلال جولاته بالظرفيات التاريخية وتغيراتها المتنوعة والمتعددة، فتنعكس تلك الوقائع على تدوينه فيأتي شيقا وممتعا. أما الجغرافيا، فقد كانت بمثابة المرشد والموجه لحركة التاريخ، ولها أهمية بالغة في التوسع الاقتصادي، والتبادل التجاري، بين الدول الإسلامية والكتل الاقتصادية الأخرى. وعلم الجغرافيا هو أداة للتعرف على الأقاليم والولايات.

ويوجد نوع من الجغرافيا يجمع بين الرحلة، والجغرافيا، ويدعى بجغرافيا الرحلات[1].ولعل أشهر جغرافيّ الرحلات عند المسلمين هم: المسعودي، والإدريسي، وابن جبير، وابن بطوطة.

وهناك العديد من أصحاب الرحلات، وعلماء الجغرافيا، الذين تركوا لنا تقييداتهم عن وهران، وهي مادة تتفاوت في قيمتها وأهميتها تبعا لاهتمام أصحابها وميولاتهم، وشدة رغبتهم في الاطلاع على حقائق الأشياء. إن موضوع الرحلة والبحث الجغرافي ليس جديدا على علماء الإسلام، وهو بالتأكيد لم يكن طارئا عليهم، فلقد مارسوا الترحال وقيدوا أخبار البلدان منذ فترة طويلة ومبكرة عن الإسلام، لكن الإسلام وسّع بدوره أفاقهم وزاد من دوافعهم حتى بلغت ذروتها. فأصبحت معرفة المسالك، وطلب الرحلة، من السائل الهامة والضرورية في طلب العلم والاستفادة من العلماء، والاستزادة في الأرزاق والأقوات.

كانت وهران في أول حالها قرية بربرية ضعيفة اسمها إيفري أي الكهف، ثم وسّعها الأندلسيون. وجزء من المدينة يقع في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع. وهي أحد أهم المرافئ في الغرب الإسلامي زارها جمع غفير من الجغرافيين والرحالة، والذين بينوا مجالها وأهميتها ووضحوا عاداتها وتقاليدها.

وهران عند البكري:

ومن الذين تناولوها في كتاباتهم أبو عبيدة البكري (400 ـ 487 هـ / 1010 ـ 1094 م)، الذي يتحدث عن حصانتها وكثرت مياهها وبساتينها، ومسجدها الجامع، وهو يلح في مسالكه وممالكه في غير ما موضع، على أن الذي بناها هو محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين الذين: «يترددون على منتجعات مرسى المدينة بعدما عقدوا اتفاقا مع قبيلة نفزة وبني مسقن»[2].ويشير إلى أن المدينة كان مآلها التخريب والحرق، بسبب الفتن والمشاغبات بين سكانها وقبائل أخرى، أرادت أن تطالب بثأرها وذلك في شهر ذي الحجة سنة 297 هـ/ 909 م.

وهجرها سكانها ثم عادوا إليها من جديد، وذلك بأمر من أبي حميد دواس بن صولات عامل تيهرت عام 298 هـ/ 910 م، واجتمعت همة الجميع على بنائها من جديد في شهر شعبان، فأصبحت وهران أحسن مما كانت عليه سابقا. غير أنها كانت ضحية الخصومات بين العمال، وشيوخ القبائل، والطامحين للحكم، وهذا ما أدى إلى تخريبها وحرقها من جديد من قبل يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بعدما أوقع بأزداجة، وذلك يوم السبت في منتصف جمادى الأولى سنة 343 هـ / 954 م، وبعدها نقل السكان إلى أرض جديدة خارج المدينة العتيقة.

المسافات والقياسات:

ومن الأمور الهامة التي يركز عليها البكري المسافات والقياسات بين المدن والأقاليم، فهو يذكر أن مدينة أرزاو (هكذا وردت في النص) أي أرزيو تبعد عن وهران بأربعين ميلا. ويشير للطرق التي تربط المدينة بمختلف الجهات، مثل:

القيروان، وتلمسان. ويصرح بأن القيروان تبعد عن وهران بثلاث وأربعين مرحلة في طريق قسطيلية، كما توجد بين وهران وتلمسان مرحلتان.

والذي يلاحظ على البكري في هذه القياسات هو عدم الدقة، فلو أخذ الباحث المقياس الأول الذي قدّمه وهو المسافة بين أرزيو ووهران، والذي جعله أربعون ميلا، فإذا كان الميل الشرعي يساوي 1848 مترا، فإن القياس الذي أعطاه يكون غير سليم، لأن هذه المسافة التي أعطاها هي أكثر مما هو متعارف عليه.

القرية العجيبة:

ومن إشاراته الطريفة، قوله بوجود قرية بها يوصف رجالها بعظم الأجساد، وهم معرفون بشدة الأيدي. وهو يروي هذه الوقائع مع غيرها من الأخبار، التي تحمل الكثير من علامات الاستفهام حول تطبيقه لمنهج النقد على تلك الأحداث، لأنه يسجلها ويذكر بأنه أخبره بها: «غير واحد»[3].فالخبر الصحيح الجدير بالتدوين في عرف البكري، إذا حدّثه به غير واحد. وأعتقد أنه محظوظ لأنه عاش قبل فترة ابن خلدون، الذي يرى بأن آفة الأخبار رواتها. لذلك يجب التثبت والتقصي عند الأخذ عنهم، وتطبيق مبدأ النقد على الرواة والراويات المراد تقييدها. خاصة إذا تعلق الخبر بالأمور الغريبة، لأن النفوس مولعة بالعجائب.

المرسى الكبير:

ويتناول البكري المرسى الكبير، الذي ذكر بأنه مرسى شتوي ساكن من كل ريح، ويحدده بمرسى جبل وهران. ويذكر أن المسافة بينه وبين مرسى الراهب من بر الأندلس ستة أميال. ويبدو أن وهران كانت هدفا لكل غازي من البر أوالبحر، وهذا ما جعل بعض سكانها يهجرونها إلى مناطق داخلية أكثر أمنا مثل فكّان، التي أسسها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني عام 338 هـ / 949 م.[4] ولعل الاضطراب الذي نجده عند البكري في بعض معلوماته، كونه اعتمد على النقل ولم يعتمد على الدراسة الميدانية، فهو أندلسي قضى أغلب حياته بقرطبة، وهو من بيت يوصف بأنه بيت إمارة.

جغرافي مراكشي يصف وهران:

وقد تناول وهران في مدونته الجغرافية كاتب مراكشي[5] من القرن 6 هـ / 12 م، والذي يذكر بأنها مدينة على ضفة البحر، ثم يبدأ بنقل ما كتبه عنها البكري حرفيا دون تغيير. والإضافة الوحيدة التي يقدمها هذا الجغرافي هي كونها مدينة كثيرة البساتين والثمار، وبأنها من أعز البلدان. وبعد ذلك يذكرها ذكرا عابرا عند محاولته لتبيان الحدود الطبيعية للمغرب الأوسط.

ابن بطوطة يتجاهلها:

و بالرغم من شهرته الواسعة فإن ابن بطوطة (703 ـ 779 هـ / 1304 ـ 1377 م) لم يتناول هذه المدينة في رحلته، فقد فضل الذهاب إلى تلمسان بعد خروجه من المغرب الأقصى حيث أقام بها بعض الأيام: «وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي».[6] ومنها توجه إلى مليانة، وكان غرضه الوصول إلى تونس التي وصلها عبر بجاية. وهكذا فإن مآربه جنت على وهران، التي لم يمكنه زيارتها، فتلك الزيارة لو وقعت، كانت ستسعف الباحثين ـ دون شك ـ بمعلومات عديدة عن هذه المدينة في فترة تاريخية حساسة. خاصة إذا أدركنا أن هذا الرحالة معروف باهتمامه بتسجيل التفاصيل الصغيرة، التي تهم المؤرخ الذي يتلقف الوقائع ويُجمّع الأحداث.

وهران عند القلصادي:

ويعد الرحالة القلصادي (815 ـ 891 هـ / 1412 ـ 1486 م) من الذين أستمتعوا بالإقامة في وهران، خلال ارتحاله من الأندلس إلى تلمسان، فهو يذكر بأنه ركب البحر من المنكب[7] في اتجاه وهران التي أقام: «بها أياما في سرور وأمان».[8] وربما عجلته في الوصول إلى تلمسان، هي المبرر الذي جعله لم يسجل أشياء أو يقيد أخبار تخص تلك المدينة. فذهنه ـ كما هو واضح ـ كان شاردا في تخيل مدينة تلمسان لأنها: «المقصودة بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات».[9] وفي

رحلة عودته مرّ بوهران قادما من تونس، حيث ركب البحر من المرسى 19 جمادي الثانية عام 854 هـ / 30 جويلية 1450 م. ولما وصل إليها في 10 شعبان / 18 سبتمبر 1450 م، لم يقيم بها طويلا، حيث كانت غايته زيارة من علق في قلبه وده من أهل تلمسان!

ذكر لبعض أعلامها:

وبعدما قضى بعض الوقت بتلمسان، خرج منها يوم الأربعاء 10 ربيع الأول عام 855 هـ / 21 أفريل 1451 م. ووصل وهران يوم الجمعة، وركب البحر في اليوم نفسه الذي وصل فيه وهو يوم 23 أفريل 1451 م. فهل هذا يعني بأن القلصادي لم يكن يهمه الأمر الكثير بهذه المدينة، غير أنها مرحلة لابد منها لبلوغ تلمسان أو الخروج منها في طريق الأندلس؟ بالطبع لا، فهو عندما يذكر شيوخه وأحبابه يتطرق إلى الإخوان بوهران، ويعدّ منهم الشيخ المتبرك به أبو عثمان سعد الشلوني الذي اعتبره في مقام والده، وأصل هذا الشيخ من قندية بأرض شاطبة وهاجر منها إلى وهران. واعتبر من أحبابه كذلك الشيخ إبراهيم التازي، خليفة الشيخ محمد الهواري. ومن الكلام الذي احتفظ به القلصادي من حكم التازي: العالم لا تعاده والجاهل لا تصافه، والأحمق لا تؤاخه. ومنهم كذلك: الفقيه يحي الهنيني، والشيخ الفقيه الصدر أبو الحسن علي بن قاسم الشهير بالحداد، والفقيه الإمام أبو الربيع سليمان الحميدي.[10]

وهكذا فقد أمدنا الرحالة والعالم القلصادي بمعلومات جد قيمة عن وهران وأعلامها خلال القرن التاسع الهجري، وهي من الفترات الخصبة في تاريخ المدينة، والمغرب الأوسط، حيث كثر العلماء، وتعددت التآليف، والمناظرات العلمية، والمدارس. ورحلته بذلك تعد رحلة جامعة بين التدوين ووصف المعالم، حيث ضمّنها الحديث عن المراكز التي مرّ بها أو أقام فيها، منذ خروجه من بسطة إلى أن وصل إلى البلد الحرام.

تناول وهران عند ليون الإفريقي:

ومن أبرز من وصف وهران وصفا دقيقا الحسن الوزان الفاسي(888 ـ بعد 957 هـ / 1483 ـ بعد 1550 م)،[11] حيث ذكر بأنها تضم البنايات، والمؤسسات، التي تتميز بها المدن المتحضرة، من مساجد، ومدارس، وملاجئ، وحمامات، وفنادق، وهي محاطة بأسوار عالية جميلة. ومعظم سكانها من الصناع، والحاكة، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم. ورغم هذا فإن المعيشة بها ليست معيشة رخاء، حيث لم يكن يؤكل بها إلا خبز الشعير! وأهلها ظرفاء وكرماء ويحبون الغرباء. وهي صفات تدل على التحضر، الذي أشار إليه أغلب من زارها من المؤرخين والرحالة.

وعند حديثه عن بني هلال يتطرق هذا الجغرافي إلى بني عامر، ويصفهم بأنهم أهم فرع من بني هلال. وهم يقيمون بمحاذاة تلمسان، ووهران، ويشير إلى أن رحلتهم كانت تصل إلى الصحراء حتى تيكورارين، ولذلك كان يستأجرهم سلاطين[12]الزيانيين للقيام بأعمال لصالح دولتهم. غير أنه لم يوضح طبيعة تلك الأعمال، إلا أنه وصفهم بالشجاعة الفائقة، والثروة الطائلة، ويخبرنا بأن أعداد قوتهم العسكرية كانت تصل إلى حدود ستة آلاف من أحسن الفرسان وأقواهم عتادا. ويشير كذلك إلى ديار هبرة في السهل الممتد بين وهران ومستغانم، ومعظمهم يمارس الفلاحة، ويؤدون الخراج لسلطان تلمسان.

ويعرض كذلك لوهران خلال تناول الأعمال الحربية لعبد المؤمن بن علي الموحدي،[13] الذي سار في طلب السلطان إبراهيم سلطان مراكش، الذي هزمه المهدي ففر إليها وتحصن بها، فاضطر عبد المؤمن إلى أن يخيم أمام المدينة.

من الواضح أن القبائل المقيمة بناحية تلمسان كانت خاضعة إبان الفتح الإسلامي في أوائل القرن السابع الميلادي لفرع من بني يفرن، إحدى قبائل زناتة الرئيسة، وكانوا رعاة رحّلا. كما كان يحتل تلك الناحية إلى الشرق فرع هام من أعظم شعوب زناتة وهم مغراوة. وكان بنو عبد الواد إذاك ـ الذين ينتسبون إلى بني

واسين، الذين يعدون من زناتة ـ يخيمون بالزاب والأوراس. ومن المحتمل أن يكون بنو عبد الواد من جملة الجيوش التي قادها عقبة بن نافع في زحفه نحو الغرب عام 62 هـ / 682 م، وأن يكونوا أبلوا بلاء حسنا. أما بنو يفرن، فقد انهارت سلطتهم لدى الانتصار الفاطمي في القرن العاشر الميلادي، لصالح مغراوة الذين لم يفقدوا الملك بتلمسان إلا عند سقوط هذه المدينة في أيدي المرابطين عام 472 هـ / 1079 م. وفي ذلك العهد تقريبا، استقرّ بنو عبد الواد جنوبّي وهران، بعدما طردهم عرب بنو هلال من زاب قسنطينة. ولم يظهروا على مسرح الأحداث بناحية تلمسان إلا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

وظهروا بوضوح كحلفاء لعبد المؤمن الموحدي، وأخيرا فإن أميرهم يغمراسن بن زيان الذي اشتهر بالشجاعة والإقدام، اتخذ عام 633 هـ / 1236 م، شعار الملكية تحت سلطة الخليفة الموحدي بمراكش، وذلك للوقوف في وجه بني مرين الذين أخضعوا شمال المغرب إلى نفوذهم، وهم أيضا من زناتة بني واسين.

ميناء وهران والمرسى:

وخلال تحليل وضع مملكة تلمسان، يذكر ليون الإفريقي أن لهذه المملكة ميناءان مشهوران وهما ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير. وهما من الموانئ الهامة في التجارة المتوسطية، بين أوروبا وبلاد المغرب، حيث كان تجار جنوة، والبندقية، كثيري التردد عليهما، ويمارسون تجارة المقايضة. ويتحدث ليون عن المرسى الكبير والتي وصفها بالمدينة الصغيرة، غير أن بها ميناءا إعتقدَ بأنه اكبر ميناء في الدنيا! حيث يمكن أن ترسو فيه ـ كما يخبر ـ بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من أي عاصفة.

ويشير ليون إلى أن هذين الميناءين سقطا في أيدي الملك الكاثوليكي فرناندو، فالمرسى الكبير تم احتلاله بقيادة الدون دييكو يوم الخميس 24 جمادي الثانية سنة 911 هـ / 23 أكتوبر 1505 م. أما وهران، فقد سقطت بخيانة يهودي من المهاجرين الأندلسيين يوم الجمعة 28 محرم سنة 915 هـ / 18 ماي 1509 م،

وهو ما اعتبر: «خسارة عظمى لمملكة تلمسان».[14] وبعد احتلال وهران من قبل الاسبان كثر دخول البضائع وخروجها، بعدما كثر رعايا الملك النصراني بها.

الأعمال الحربية:

والسبب في احتلال النصارى لوهران، أن أهلها كانوا كثيرا ما يجتاحون سواحل قطلونية، وجزر يابسة، ومنورقة، وميورقة، حتى أصبحت وهران تزخر بالأسرى المسيحيين. فأرسل فرناندو ملك اسبانيا أسطولا كبيرا لوهران لمحاربة أهلها، وتخليص المسيحيين من مصيبة عظيمة تتكرر بدون انقطاع. فانهزم الأسطول في المرة الأولى، ثم أعاد فرناندو الكرة بعد شهور، فجمع بمساعدة بعض الأساقفة، وكردينال إسبانيا فرنسيسكو خيمينيس أسطولا أكبر من الأول، تمكن في يوم واحد من الاستيلاء على المدينة، لأن السكان خرجوا ليقاتلوا دون خطة واضحة، وبفوضى وبلا نظام وأصبحت المدينة خالية، فأدرك الاسبان ذلك فبعثوا بقسم من جيشهم إلى الجهة الأخرى من وهران، فلم يجدوا أي مُدافع غير النساء! وقد صعدن على الأسوار، فدخل جيش النصارى بسهولة، بينما كانت المعركة لا تزال حامية في الخارج، وانتهت المعارك بعد قتل الكثير من سكان المدينة، ورفع النصارى الرايات المسيحية على أسوارها.

ومن الملاحظات الهامة التي يمكن الوقوف عندها من خلال المادة التي يقدمها ليون، هو التسامح الإسلامي تجاه النصارى خاصة المسالمين منهم، فبعد سقوط وهران في يد الاسبان كثر بها الجنود النصارى،[15] ويبدو أن هؤلاء لم يرحبوا بوجود التجار البنادقة، الذين كانوا يرتادون المدينة للتجارة ـ كما ذكرت ذلك سابقا ـ فطلب أهل تلمسان من البنادقة أن يأتوا إلى هنين، فأصبحت تدخل لميناء المدينة سنويا العديد من السفن الشراعية من البندقية، هذه الأخيرة حققت أرباحا كبيرة مع تجار تلمسان. أما ملك إسبانيا فقد استفاد من السيطرة على وهران أموالا كثيرة، من خلال دخول البضائع وخروجها منها، مع وجود أعداد هائلة من رعاياه بها.

ابن خلدون لم يذكرها:

ومن الغريب أن نجد مؤرخ شهير مثل عبد الرحمن بن خلدون (732 ـ 808 هـ / 1331 ـ 1405 م) لا يتطرق لوهران في رحلته، رغم كثرت تردده على حواضر المغرب الإسلامي. وقضائه لفترة هامة من حياته بتلمسان، وتيهرت. ونجده في المقابل يذكر مدنا أقل شأنا منها مثل: البطحاء،[16] ومنداس،[17] وفرجيوة،[18] وتيكورارين،[19] والمسيلة.[20] والأمر نفسه ينسحب على الرحالة أبي سالم العياشي (توفي سنة 1090 هـ / 1679 م) فرغم شهرته لم يتطرق لذكر هذه المدينة في رحلته ماء الموائد، كما هو شأن الرحالة أبي عبد الله محمد السراج المعروف بابن مليح،[21] حيث كان اهتمامهما أكثر بوصف المدن الصحراوية، ومع ذلك يرد عند العياشي ذكر بسيط لبعض الحواضر الكبرى مثل: بجاية[22] وقسنطينة.[23] ولكنه ذكر محتشم جدا ولا يفي بالغرض.

وهران كما وصفها الزياني:

ولما كان الزياني (1147 ـ 1249 هـ / 1734 ـ 1833 م) من أكثر الرحالة صراحة في القول، وصدقا في القول، فقد كثر الاهتمام بكتاباته خاصة ما تعلق منها بالتأريخ، وهو في كتابه الترجمانة الكبرى يصرح بأن مدينة وهران من المدن التي بناها الروم، ثم فتحت في الإسلام واستولى عليها بني يفرن ثم من بعدهم الأدارسة، وبعدهم خضعت للشيعة، ثم زناتة، وتوالت على حكمها الدويلات الإسلامية، التي أقامت كيانات سياسية بالمغرب الإسلامي حتى صارت للاسبان، ثم: «فتحها الترك أيام السلطان سليمان العثماني، ولا زالت بأيديهم».[24] والزياني بقوله أن الروم هم من أسس وهران، يخالف من سبقه من الجغرافيين والرحالة، الذين أشاروا إلى أسبقية البربر في عمارتها، وممارسة أنشطتهم بها.

وهران العثمانية:

ويعد هذا الرحالة من أصحاب الخبرة، خاصة فيما يتعلق بالمدن القريبة من المغرب الأقصى، وهو يعطينا معلومات دقيقة ومفيدة عن الباي محمد بن

عثمان باي وهران، فقد اجتمع به لما قصد هذه المدينة قادما من وجدة. ولما وصل إليها، حكا للباي عن النكبات التي مرّ بها خاصة خبر سجنه بالدوائش، والرباط، ثم ذهابه إلى فاس لمبايعة السلطان سليمان، وتقليد هذا الأخير له ولاية وجدة، غير أنه لم يهنأ بها، فقد هاجمها العرب من كل جهة وبالخصوص عرب أنقاد، ووقع الحرب فانهزم أهل وجدة، ونهب الغزاة كل المدينة. ولما سمع الباي حكايته أظهر : «التأسف والتوجع على ما أصابنا، وأقسم أنه لا يترك الأخذ بثأرنا».[25] ويشير الزياني إلى أن الباي وعده بأن يخلف له جميع ما ضاع منه، وطلب منه أن يقر عينا في وهران ويطب نفسا بها. ثم جعل يسأله عن أحوال سلاطين المغرب الأقصى، فأخبره صاحب الرحلة أن السلطان سليمان صاحب عقل، وعلم، ودين.

ومن كرم الباي محمد أنه دعا الزياني للأكل معه في سُفرة واحدة، وقرّبه إليه وأمر كتابه بالأكل معهم. ثم أنزله في دار أكبر الكتّاب، وأمر كاتبه في الغد أن يتوجه مع الزياني لكي يريه قصبة وهران، وأبراجها، ومدافعها، ومخازنها، فرأى الزياني ذلك كله ثم عاد لمنزل الكاتب.[26] وكان الزياني يريد أخذ الإذن بالذهاب لتلمسان، وسمح له الباي بالتوجه إليها وأوصى به خيرا، ووجه معه فارسين.

التيجاني والأتباع:

وفي موضع آخر من رحلته يتحدث عن ظهور أخبار الشيخ التيجاني، الذي يصف أتباعه بأقبح الأوصاف والنعوت مثل: المبتدعة، والرافضة، والطائفة الوهبية بصحراء المغرب. ويشير بعد ذلك إلى نفي الباي محمد بن عثمان للتيجاني من تلمسان، وذهابه إلى قرية أبي سمغون، واجتماع الناس من حوله، وينبه إلى أن هذا الشيخ استطاع أن يؤثر على أهل تلك البلاد، حيث: «اجتمع عليه أوباش من العامة، الجهلة، وصار يوجههم لأجلاف العرب، والبربر، الذين بالصحاري، فصاروا يعتقدونه ويأتونه بالهدايا، وعظم صيته وكثر فساده وعيثه».[27] ولما بلغ خبره لباي وهران وهو إذاك ابن الباي محمد بن عثمان، كتب إلى أهل قرية أبي

سمغون: «بالوعيد إن لم يطردوه من بلادهم، فلما بلغه ذلك خاف على نفسه، أن يجرف في رمسه، ففرّ للمغرب في نحو العشرة من أبناء جنسه».[28] وطبعا كل هذه الوقائع التي جاء بها الزياني، توضح العلاقة السيئة للأتراك بالطرق الصوفية في نهاية حكمهم بالجزائر، خاصة تلك التي لم تكن أهداف أصحابها قد اتضحت بعد. وقد عُرف عن هذا الرحالة التطرف في النقد، إلى درجة البعد أحيانا عن قواعد الذوق والإنصاف، وربما أمعن في كشف المساوئ والعورات إلى حد السلاطة، بحيث لم يسلم من لسانه وقلمه حتى بعض الذين أحسنوا إليه.

الزياني يشيد بالباي:

وفي فصل آخر من كتابه، يرجع الزياني للحديث عن الباي محمد بن عثمان لكن يذكره باسم السلطان حسن، ويشيد به كثيرا وبأعماله الحربية، التي أعادت وهران إلى أرض الإسلام، بعدما سيطر عليها النصارى مدة طويلة. ويصفه بأمير العدل، ومن أهل المروءة، ويقول بأنه: «جلس على كرسي الخلافة».[29] وهذا اللقب ـ أي الخلافة ـ لا يمكن أن يصدر من هذا الرحالة بسهولة، فهو معروف بلسانه السليط، وبولائه الشديد للسلاطين بالمغرب الأقصى.

ويعدد مزايا ومحاسن الباي، الذي شاعت مكارمه إفرادا وإجمالا، فقد حصّن ثغور المسلمين وعمرها بالمدافع، وملأ خزائن الثغور بالبارود. ويتحدث عن صرفه: « همته لجهاد مدينة وهران، وإخلائها من عبدة الصليب أهل الضلال والخسران...وحاربوهم حرب المهاجرين والأنصار، ووقع بالكفرة ما لم يقع بمصر من الأمصار».[30]وهو يشيد بهذا الفتح الذي لم يحصل لملك من الملوك، ووصل خبره إلى كل ناحية. وبعد هذا النصر، صرف الباي رغبته إلى فداء أسرى المسلمين من جميع بلاد الكفار. ويشير إلى أمر غاية في الأهمية يتعلق بنظام الحسبة، والذي مارسه الباي بنفسه، حيث كان يوجد بجوار دار الخلافة بوهران حانوتا يباع فيها الخمر للكفار، ويجتمع حولها الأشرار، فعمل على تهديمها: «وصيّر عاليها سافلها

وما تأنى في ذلك ولا صبر، وصيّرها مسجدا جامعا للإسلام».[31] وأنفق عليه الكثير من الأموال، وأصبح يعج بالعلماء، وأهل الخير، وأوقف على هذا الجامع دكاكين ومقاهي بأسفله. وقدّم الزياني وصفا غنيا ومفصلا لهذا الجامع، لقبته ومحرابه ومنبره، وجدرانه ومواد البناء التي استعملت في بنائه، والتي جلبها الباي من خارج بلاده.

ويتضح من خلال تلك الوقائع أن الزياني قدّم لنا مادة أصيلة عن وهران وأحداثها، يندر الحصول عليها في مضان أخرى، فهو يؤرخ للسلطة ولكن لا يغفل الجانب الحضاري، ويهتم بالحركات العقدية، والأعمال العسكرية، ويهتم بالأمور التي تنظم الإدارة، مع غيرة دينية واضحة، تتجلى في ابتهاجه الشديد عند تقييده لتفاصيل تحرير الثغور الإسلامية.

وهناك مصادر اهتمت بمجال معين عن هذه المدينة وأقصد الجانب العسكري، وأخبار الفتوح والجهاد، حيث يشير بعضها إلى أن محمدا الكبير ـ عندما كان يستعد لفتح وهران ـ وجّه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلة، مصحوبين بهدايا إلى سلطان المغرب الأقصى، ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية. واشترى الباي من الانجليز بجبل طارق عددا من المدافع، وكمية كبيرة من البارود والرصاص، واكترى سفنا من الإفرنج ليحملها بعد ما ضمن لهما الأمان والنجاة عبر البحر. كما بعثت له قبائل أزوا كمية كبيرة من البارود الذي كانوا يصنعونه في جبالهم، ثم أمر بصنع العربات لجر المدافع، وعبّد لها الطرق بين معسكر ووهران، وأطلق سراح جميع المساجين ليكونوا عونا له على ما هو عازم عليه.

وبعدما سقط برج المرسى الكبير، تم الاستيلاء بعد ذلك على وهران. غير أن باي الأيالة الغربية مصطفى بو شلاغم فتح المدينة في صبيحة يوم الجمعة 26 شوال عام 1119م،بعدما مكث بها الأسبان مائتي عام وخمس سنوات. وقد أشار

الحافظ أبو عبد الله النّقيري في رجزه إلى تاريخ دخول النصارى وخروجهم من وهران ومدة مكثهم بها، إذ يقول:

يا سائلا عمّا بوهران ظهـــــر	من أخذها وفتحها كما انتشر
أخذها الكفار بالثبـــــــات	فيما رويناه عن الثقـــــات
سنة أربـــــع وعشرة مضت	من بعد تسعمائة قد كمــلت
فمائتان مع خمسة سنـــــين	عدة مكثها بأيدي الكـــافرين
ثم بدا العـــــــزم من الإله	وجاءنا الفتـــــح ونصر الله
ففتحت سنـــــة تسعة عشر	ومـــــائة بعد ألف تعتبر
في سادس العشرين من شوال	صبيحة العشرين خذ مقــالي
عن يد من قد صيّر الجـــزائر	جنـــــــة كل قاطن وزائر
محمد بكداش فخر الــــدولة	وحسن صهره عالي الصولة[31]

لكن الأسبان تمكنوا من استرداد وهران وإسقاطها من جديد سنة 1143 هـ بعدما مكث بها المسلمون أربعا وعشرين عاما، وإلى هذا التاريخ يشير المؤرخ محمد أبو راس الناصر المعسكر في سينيته الشهيرة:

من بعد عشر وعشر ثم أربعة	عادوا إليها فقرت أعين النعس

الخاتمة:

ومما سبق يمكن القول أن المادة التاريخية التي يقدمها علماء الجغرافيا والرحلات ـ أو بعضهم على الأقل ـ عن وهران، هي مادة كافية لإعطاء فكرة واضحة عن تاريخ هذه المدينة في خطوطه الرئيسة أو العامة. فأغلبهم يبين علاقاتها التاريخية الوثيقة بغيرها من الحواضر المغربية، و المشرقية، والأندلسية. وهذه العلاقة الوثيقة لا تستند إلى أسس سياسية فقط، بل إلى أخرى علمية، فبفضل تراجم العلماء، والفقهاء، والزهاد، والأدباء، التي جاءت في كتب الرحالة، والجغرافيين، حيث تتأصل الصلات بين أقطار المغرب، والأندلس، ومصر، وكذا بلاد المشرق. وبفضل هذه الكتابات، تتضح لنا اتجاهات التيارات العلمية، والثقافية، في المجال الذي تتحدث عنه، ونستطيع من خلالها أيضا أن نتصور العملية التاريخية الرائعة، التي تُبرز أعلام السياسة المسلمين، الذين يدافعون عن الأراضي الإسلامية، وإنجازاتهم الحضارية. بالإضافة إلى تتبع حركة القبائل، ونزوحها من مجال لآخر، واستقصاء الأسباب والنتائج.

الهوامش

1ـ أبو عبيدة البكري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب وبيت الحكمة تونس، ط 1992، ج 2، ص: 738.

2 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 739.

3 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 749.

4 ـ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية الدار البيضاء، ط 1985، ص ص: 133ـ 134.

5 ـ محمد بن عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت، ص: ج 1، ص: 10.

6 ـ المنكب: مرفأ ساحلي مرتفع في جنوب شرقي الأندلس بمقاطعة غرناطة. قال المقري: من أعمال غرناطة وادي آش والمنكب ولوشة. وقد كان من الحصون القوية وأصبح اليوم فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مطريل في ولاية غرناطة. ينظر: نفح الطيب، ج 1، ص: 165.

7 ـ أبو الحسن علي القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الدار التونسية للتوزيع تونس، ط 1985، ص: 95.

8 ـ المصدر نفسه، ص: 95.

9 ـ المصدر نفسه، ص ص: 111ـ 112.

10 ـ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمه محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983، ج 2، ص: 30.

11 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص: 51

12 ـ المصدر نفسه، ج 1، ص: 129.

13 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 9.

14 ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 15.

15 ـ موقع البطحاء بين غليزان ووادي شلف.

16 ـ عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق عليها محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 2004، ص: 187.

17 ـ المصدر نفسه، ص: 95.

18 ـ المصدر نفسه، ص: 180.

19 ـ المصدر نفسه، ص: 119.

[20] ـ أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب، ط 1970.

[21] ـ أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية ماء الموائد، وضع فهارسها محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر الرباط، ط 1977، ج 2، ص: 44.

[22] ـ المصدر نفسه، ج 2، ص: 127.

[23] ـ أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط 1991، ص: 141.

[24] ـ المصدر نفسه، ص: 140.

[25] ـ المصدر نفسه، ص: 140.

[26] ـ المصدر نفسه، ص: 461.

[27] ـ المصدر نفسه، ص: 460.

[28] ـ المصدر نفسه، ص: 375.

[29] ـ المصدر نفسه، ص: 375.

[30] ـ المصدر نفسه، ص: 376.

[31] ـ ابن هطال التلمساني، رحلة الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط الأولى2004، ص: 19.